على هامش الاعتداء الاسرائيلي على الجنوب

ثلاثة حوارات عصبيّة

- لم يبقَ لدينا إلاّ اليأسُ، قال.
- وهل ثمّةَ ما هو أشدُّ رعباً - قلت - : أن يصير اليأسُ آخرَ متنفَّسٍ لنا؟
- دعكَ من هذا. وانضمَّ إلينا. لقد صرنا أقوى من كلِّ الأحزاب والسُّلَط.
- وما هذا الضّجيج؟
- عظام. مجرَّد عظامٍ يائسينَ سبقونا. لا تخف. جرِّب «ويك أند» واحداً فقط. وسيكون لك رفاقٌ ومحبُّون.
- ثمّة أمرٌ آخر!
- هلكتني.
- ما الذي يضمن أنّكم أفضل ممثّلين لليأس؟
- ما أشدَّ حذلَقَتَك. نحن مستقلُّون، قرارنا ملكُ يدنا، وأفكارنا تصدر عن تربتنا الأصيلة. وأمّا اليائسون الآخرون فمشبُوهون، أو عملاء، أو ظلاميُّون، أو متغرِّبون. وهم في أفضل الأحوال مجرَّد مزايدين.
- لم أكن أعلم أنّك لاتزال متحمِّساً لأمرٍ من الأمور. ظننتُك يائساً من كلِّ شيء.
- شو رأيك تحلّ عن ربِّي؟

* * *

- لم يبقَ لدينا إلاّ الواقعيّة، قال صديقي الآخر.
- يعني أمريكا؟
- لن أُسْتَفَزّ. يبدو أنّك خبيرٌ في استفزاز الآخرين. نحنُ مهزومون. رحَّلونا على البواخر عام ٨٢، وضربونا في العراق ولايزالون، وأجهزوا على الاتحاد السوفياتي بعد أن كان قد باشر في هدم نفسه بنفسه.
- والمقاومة؟
- المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة تطيَّفَتْ، وتَمَذْهَبَتْ، وتَمَرْحَلَتْ، ثمَّ تبعثرتْ بين الأنظمة. والمقاومة الفلسطينيّة تستجدي عطف كريستوفر.
- ولكن هناك كاسترو ومانديلاّ و...؟
- الأوّل سيُجَوَّع حتّى يُدَمَّر أو يستنجدَ بالعمِّ سام. والآخر سيموتُ شيخوخةً أو اغتيالاً (كما حدث لرفيق عمره «هاني»)... هذا إذا لم تُلحق به زوجتُه السّابقة قهراً جديداً!
- طيِّب، والانتفاضة؟
- محكومٌ عليها بالموت. الأموال التي كانت تأتيها من الخارج شَحَّت أو انحرفت عن هدفها. ومع احترامي الشّديد لها وإعجابي العظيم بها، فإنَّ حجارة الأطفال وزيْت النِّساء وغضبَ الشّيوخ لن تحرِّر أرضاً أو تبني دولة. ثمَّ إنَّ المناضلين هناك

ـ وهو ما يحزُّ في نفسي ـ قد بدأوا بتصفية بعضهم البعض. ولا أصدّق أنّك ممّن يُراهنون على «حماس»، وأنت العلماني!

ـ والنّتيجة؟ بدون استفزاز، النّتيجة هي أمريكا!

ـ أمامنا واقع جديد، وأنت لاتزال تعيش في أوهام الستّينات والسبعينات وأوائل الثمانينات. أمريكا تريد حلاً في المنطقة، لا لأنّها تريد أن تُظهر للعالم الثالث بعد ضرب العراق أنّها عادلةٌ مع الجميع، فحسب، بل لأنّ اسرائيل قد صارت عبئاً عليها كذلك. العرب يقدّمون لأمريكا كُلّ ما تطلبه، فلماذا تستعديهم؟ثمّ إنّ المفاوضات لابدّ أن تأتي بشيءٍ ما، لأنّ أمريكا هي التي بدأتها ولا يمكن أن تنهيها دون أن تُعطي العربَ شيئاً.

ـ ولكنْ، لن تعطينا أمريكا إلاّ...

ـ يا أخي، ما ستعطينا إيّاه أفضل من لا شيء.

ـ والكرامة، والمبادئ، وبقيّة الأراضي المحتلّة؟

ـ لا كرامة بدون أرض. وأرجوك ألاّ تزايد عليّ. أنا أشدُّ حرصاً على مبادئي الأولى منك. فأنا مازال معادياً لوجود اسرائيل، وللامبرياليّة، ولكلّ ما شئتَ أن أعاديه. ولكنّ المغامرة والهَوْبَرَة والتّشبيح والتّنطّح، أتعرف إلامَ تؤدّي؟ إلى الموت المجّاني.. أو إلى اليأس الذي لا يخجل صديقك من الدّعوة إليه.. وعلى صفحات «الآداب» أحياناً.

ـ أنا الذي اسْتَفزّ؟

ـ Sorry. ما كان قصدي. ولكن المغزى هو أنّنا لن نستطيع أن نهزم اسرائيل والامبرياليّة ... بدون دولة مركزيّة قويّة ومجتمع مدني قوي.

ـ ولكن، هذا ما يقوله الحريري!

ـ قلْ لي: لماذا ينبغي على الجنوب أن يدفع ثمن مقاومة اسرائيل؟ وإلى متى ننتظر الاستراتيجيّة العربيّة الموحّدة التي طَرَشونا بها؟ في الأسابيع الماضية هُجِّر أكثر من نصف مليون جنوبي من أرضه، واستشهد ما يزيد على المئة والخمسين، وكالعادة لم يأتنا دعمٌ من أحد.

ـ الكويت بعثتْ لنا بِخِيَمٍ وبطّانيّات، والسّـ...

ـ كثّر الله خيرها. ماذا أرسلنا نحن للكويت سنة ٩٠؟ الخلاصة: أنا أقبل بالاعتراف باسرائيل، وأقبل بسلامٍ منقوصٍ وغير عادل معها. فقبولي هذا سيحفظ لي ما تبقّى من الأرض والبشر. وفي السنوات القادمة سينشأ جيل جديد، بل أجيال جديدة، تستند إلى الأرض التي حافظنا عليها وتستند إلى البشر الذين لم نبذّر دماءهم بدون مقابل، وتستند أخيراً إلى المؤسّسات التي يقومُ التطوُّرُ عليها وتنهض التكنولوجيا بها.

* * *

ـ لا خيارَ لنا إلاّ المقاومة، قال صديقٌ ثالث.

ـ براڤو عليك! لكن بماذا تقاوم؟

ـ هذا السؤال لا يُسأل عنه المقاومون.

ـ والله؟ ومن نَسأل إذن؟ هل نسأل الّذين لا يقاومون؟

ـ لا تسخرْ. تعرف ما أعنيه. حين يتّخذ الإنسانُ قراراً بالمقاومة فإنّه يخترع السّلاحَ اختراعاً.

ـ المشكلة يا حَبيبي أنّ السّلاح الّذي ستخترعه حضرتك لن يجدي نفعاً.

ـ الآلة لا تتغلّب على الإنسان. كُلُّ جبروت أمريكا لم يَقدر على قهر ڤيتنام وكوبا. اقرأ الجنرال جياب وغيفارا.

ـ ألم تزل عند جياب وغيفارا؟ يا قلبي، المقارنة لا تصحّ لعدّة أسباب أهمّها العامل الدولي؛ فالاتحاد السوڤياتي لم يعد موجوداً، بل صارَتْ روسيا اليوم مجرّد شحّاذة رخيصة. ثمّ إنّ حرب الأمريكان على العراق قد أثبتت نقيضاً لما تقول: فالتكنولوجيا قادرة ـ حقّاً ـ على إلحاق الهزيمة بالشعوب. لقد كان الشعبُ العربي، بل الأمّة المسلمة بمعظمها، معاديينْ للأمريكان. لكنْ لم تحدث مواجهة فعليّة. نحن ننتظر على الدوام أن يأتي عدوُّنا على فَرَسٍ، فنُجَنْدِله. لكنّنا مؤخّراً لم نعد نرى عدوّنا، فقد راح يقصفنا من آلاف الأمتار. وانْهَزْنا، لأنّنا لا نستطيع أن نسدَّ جوعَنا ـ الّذي أمضّنا أسابيع ـ بنشيدٍ ثوريّ أو بمظاهرة عفويّة مؤيِّدة وإنْ بلغت الآلاف المؤلّفة.

ـ يا صديقي. ما تحكيه منطقيّ واقعيّ. ولكنّه جانب واحدٌ من المسألة فحسب. فنحنُ، منطقيّاً وواقعياً، لا نستطيع أن ننتظر قيامَ اتحاد سوڤياتيّ جديد (هذا إذا سَلَّمْنا أنّ الاتحاد السوڤياتي القديم لم يكن في أساس تشريع قيام دولة اسرائيل منذ البداية). ونحن، منطقيّاً وواقعيّاً كذلك، لن نتفوّق تكنولوجيّاً على الغرب الاستعماري؛ وحتّى لو حصل هذا فإنّه لن يكون كفيلاً ـ في حدِّ ذاته ـ بتحرير أرضنا، وقد نبقى رهائنَ للمشيئة الأمريكيّة كما هو حال اليابان. وأخيراً، فنحنُ، واقعيّاً ومنطقيّاً، مُحْتَقَرُون ولا يُقَدَّم لنا شيء بالمعنى الحقيقي للكلمة لكي نقبله.

ـ عُدنا إلى الايديولوجيا.

ـ أنا لا أُردِّد ما يقوله بعض المثقّفين العرب الّذين بتُّ لا تثق بهم كثيراً. أنا أقول ما يقولُه بعض الأمريكيّين المعارضين كذلك. لكنّك قد توقّفتَ عن القراءة فيما يبدو. أمسِ، على سبيل المثال، أعارني صديقي سماح (وهو شاب بورجوازي وطني مثلك) عدداً من مجلّة «الآداب»، وفيه نصّان لمثقّف أمريكيّ يهوديّ اسمه نعوم تشومسكي. المجلّة أمامنا، وسأكتفي بأن أورد لك بعضَ ما جاء في النّصّيْن من ملاحظاتٍ لافتةٍ للنّظر:

> ـ إنّ الأولويّة [بالنسبة للإدارة الأمريكيّة] هي للأرباح والقوّة. وحين تتجاوز الديموقراطيّةُ الشّكلَ تغدو خطراً ينبغي [في رأي هذه الإدارة] التغلّب عليه. وليست حقوقُ الإنسان إلّا لأغراض الدعاية وحدها.
>
> ـ لقد وقفت الولاياتُ المتّحدة، عمليّاً ولسنين طويلة، في وجه العمليّة السلميّة التي تُعطي للفلسطينيّين حقوقهم الوطنيّة.
>
> ـ الحكم الذاتي [في الأراضي المحتلّة]... هو أشبه بحكم أسرى الحرب أنفسهم بأنفسهم داخل مخيّم اعتقالهم؛ وهو حكمٌ ذاتيٌّ يكونُ فيه الفلسطينيُّون أحراراً في جمع نفاياتهم في أماكن معيَّنة لم تحتلّها اسرائيل.. وشرطَ ألّا تحملَ براميل النفايات ألوانَ العلم الفلسطيني..
>
> ـ القادة الأمريكيُّون يريدون أن يُنشِئوا مبدأً يقول إنّ العالم لا تحكمه إلّا القوّة... ويريدون أن يمنعوا أيّة قوميّةٍ مستقلّة من البروز.
>
> ـ إنّ ادّعاء الإدارة الأمريكيّة...

ـ قفْ. قفْ. ما تذكره هو موقفُ مثقّفٍ معينٍّ. فما أدراك أنّ الإدارة الأمريكيّة لم تغيِّر سياستها منذ بَدْءِ العمليّة التّفاوضيّة؟

ـ ألم أقُلْ لك إنّك قد كفَفْتَ عن القراءة؟ منذ ثلاثة أسابيع اشترتيتُ مجلّة اسمها The Washington Report فعثرتُ فيها على خبريْن يحملان الكثيرَ من الدلالات.

ـ هات ما عندك يا مثقّف آخرِ زمان!

ـ قرأتُ في المجلّة مقالةً لـ «پول فندلي»، وهو عضوٌ سابقٌ في الكونغرس الأمريكي وصاحب كتاب «من يجرؤ على الكلام» الفاضح لدور اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة. وفي المقالة يكشف «فندلي» عن وجود برنامج يقضي بجعل حيفا ميناءً دائماً للأسطول السادس الأمريكي. وقد صُرِف، إلى الآن، أكثر من أربعةٍ وسبعين مليون دولار لتطوير التسهيلات في مصنع في حيفا تملكه الحكومةُ (هو مصنع «اسرائيل شيبارو») ولدراسة ما يتطلّبه ميناءُ حيفا ليصير مؤهَّلاً للتعزيزات والإصلاحات وإعادة مَرْكَزة الأسطول السادس هناك في أوقات السلم والحرب على حدٍّ سواء. وقد قَدَّرَ واحدٌ من المسؤولين البحريّين الأمريكيّين كلفةَ جعلِ الميناء مؤهَّلاً لاستقبال حاملات الطائرات الأمريكيّة بمئتي مليون دولار. وهذا الرقم لا يشمل بناءَ المدارس والمساكن والمستشفيات وغير ذلك من التسهيلات التي سيحتاج إليها الطاقمُ الأمريكي وعائلاته. وستتكفّل الولاياتُ المتحدة بدفع المبلغ برمّته.

ـ هذا شيء خطير.

ـ وفي العدد نفسِه مقالة خطيرة أخرى قامت جريدة «السَّفير» البيروتيّة منذ فترة بترجمتها. وتتحدَّث المقالة عن الأموال التي صرفتها اللّجانُ السياسيّة المؤيِّدة لاسرائيل عام ١٩٩٢ على أعضاء أساسيّين في الكونغرس الأمريكي، ديموقراطيّين وجمهوريّين على حدٍّ سواء، مُوزَّعين على لجان مجلس الشيوخ المتخصّصة بـ «العمليّات الخارجيّة» و«الدفاع» و«التمويل الخارجي»؛ وجميعها لجانٌ تقرّر كيفيّة توزيعِ المعونة الأمريكيّة على دول الخارج.

ـ وكم عددُ الأعضاء الذين يتقاضَوْن أموالاً من اسرائيل؟

ـ التقرير يذكر أسماء مئتين وخمسة وستين عضواً، تراوح ما قبضوه العامَ الماضي بين ٢٥٠ دولاراً (وهؤلاء لا يتجاوزون الثلاثة) ومئة وخمسة عشر ألف دولار (وهو ما قبضه آرلين سپكتر النائب الجمهوري في ولاية پنسلڤانيا). وثمّة جدولٌ آخر يبيِّن لك ما قبضه أولئك الأعضاء المئتان والخمسة والستون طوال حياتهم العمليّة؛ تصوَّرْ أنَّ پول سايمون ـ وهو فيما أعتقد قد كان أحدَ المرشَّحين الديموقراطيّين البارزين لرئاسة الجمهوريّة ـ قد قبض من المنظَّمات الموالية لاسرائيل أكثرَ من خمس مئة وثمانين ألف دولار!

ـ فهمت. وما العبرة التي تودّ أن تخلص إليها؟

ـ هل يعقل أن ينصر الكونغرسُ الأمريكيُّ قضيّةً عربيّةً عادلةً حين يكون أكثرُ أعضائه قد قبضوا أموالاً (بعضها يتجاوز العشرةَ آلاف دولار شهريّاً!) من إسرائيل ومؤيِّديها؟ ألم تتساءلْ ـ كما تساءلتْ جريدةُ «السَّفير» ـ لماذا طالب الكونغرس مؤخَّراً الجيشَ السوريَّ بالانسحاب من لبنان ولم يأتِ على ذكر الاحتلال الاسرائيلي؟ أنا لا أقول إنَّ المال هو السبب الأوحد أو الأهمّ لموقف أعضاء الكونغرس، ولكنّه أحدُ العوامل الجديرة بالتأمُّل من دون شكّ.

ـ ولكنْ كيف تربط خلاصَتَك تلك بالواقعيّة التي كنتُ أتحدَّثُ عنها؟

ـ إنَّ ما تكلَّمتُ عنه هو الواقعيّة بعينها. هذا هو الواقع، لا الحلم. هذه هي أمريكا يا صديقي.

ـ لنفترض أنّني اقتنعتُ بأنَّ الإدارة الأمريكيّة ـ بحكم ما ذكرتَ، وبحكم تاريخها الاستعماري ـ هي نقيضٌ موضوعيٌّ ونهائيٌّ لمصالح العرب وقضاياهم العادلة. لكنّك لم تفسِّرْ لي بَعْدُ كيف تكون مقاومتُنا لها واقعيّةً، ونحن الأضعفُ في جميع المجالات العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة؟

ـ لقد وصلنا، أنا وأنت، الآن إلى نقطة توافق مشتركة لم نصلْها في حياتنا منذ أمدٍ طويل. أنا لستُ مقتنعاً بانتصارنا ـ وهو ما يلومني عليه سامي ورفاقه باستمرار ـ لكنّني مقتنعٌ أنّه لابُدّ من إزالة الأوهام الّتي زرعها فينا البعضُ باسم الواقعيّة. إزالة الأوهام بدايةٌ لطريقٍ أؤمن بسلامته. ولكنّي أعترفُ أمامك بأنّني لا أطمس أحلامي باسم الواقع. ومن يدري، فلعلَّ أحلامنا تصير واقعاً بعد حين، فلا نشتم أنفسنا أو تشتمنا الأجيالُ الجديدةُ التي قد لا تستسلم مثلما استسلم أكثرُنا.

ـ هذا هو مقتلُك يا صديقي. تحليلك للسياسة الأمريكيّة مقنع، لكنْ لا بديلَ تقدِّمه لمواجهتها ولمواجهة اسرائيل.

ـ ليس البديل عمليّةً سحريّةً تنشأ في يوم أو سنة. وعلى كُلِّ حال، فإنَّ إزالةَ الأوهام، والتحليل المقنع، والابتعاد عن اليأس المدمِّر، لابُدّ أن تشكِّل جزءاً هامّاً من البديل المرجُوّ.